الفائدة السابعة والخمسون:

التـــــوبة

الحمـــدُ للهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، **أَمَّا بَعْدُ**:

فكانت النصيحة عند استقبال رمضان أن نستقبله بالتوبة، والاستغفار لما في ذلك من التجاوز عن السيئات، والزلات، ولما في ذلك من رفع الدرجات، ولما في ذلك من العون من الله عَزَّوَجَلَّ على الطاعات؛ فلا تُجلب الحسنة بمثل الحسنه، ولا تُدفع السيئة بمثل الحسنة.

ومن أعظم الحسنات، وأوجبها التوبة، فهي واجبة في كل حين لا يخصها وقت من الأوقات، فعن أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(١).

وهذا من رحمة الله بعباده؛ لأن الناس يقع منهم الزلل، والمعصية، والمخالفة، وترك الطاعة، إلى غير ذلك فتعين عليهم الرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالتوبة، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور:٣١].

ولهذا كان النَّبِيُّ ﷺ يستغفر الله «**فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(٢)، وفي رواية: «**أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٩).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) عَنِ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بل في حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»(١).

في مجلس واحدٍ مائة مرةٍ يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لكنه ﷺ يُشَرِّع للأمة أن تكثر من التوبة، والاستغفار.

ولهذا شُرع دبر كل صلاة أن تَقُولَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ ثَلَاثًا، وشُرع بعد الحج أن تستغفر الله، قَالَ تَعَالَى: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ} [البقرة:١٩٩]، وشُرع بعد الجلوس في المجلس أن تَقُولَ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»(٢).

وكم هي الألفاظ التي تحدث بها التوبة، فالتوبة أمرها عظيم؛ فإنها تصقل القلوب من الذنوب، وهي كفارة لما قبلها إذا صدق فيها التائب، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى } [طه:٨٢].

فتحصل المغفرة لمن تاب توبة نصوحًا، وكان مؤمنًا، وكان مبادرًا إلى العمل الصالح، وقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} [الفرقان:٦٨-٧٠].

وهذا من تمام النعمة على العبد أن الله يغفر الذنب الأول، ويبدل السيئة بالحسنة، وهذا منةٌ من الكريم، المنان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه الآية نزلت في قوم رأوا

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٦)، والحديث في «الصحيح المسند» لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) اخرجه الترمذي (٣٤٣٣) عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أن لا توبة لهم، كما في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ نَاسًا، مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ، لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً فَنَزَلَ: {وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَلاَ يَزْنُونَ} [الفرقان:٦٨] وَنَزَلَتْ {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ} [الزمر:٥٣](١).

فكل ذنب يغفره الله عَزَّوَجَلَّ إذا صدق الإنسان في توبته، ورجوعه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، انظر إلى نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع إسماعيل في مكه، يعمران البيت العتيق ومع ذلك؛ {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:١٢٧-١٢٨]، فيدعوان الله عَزَّوَجَلَّ بالتوبة، فنحن أحرى، ونحن نعاشر الشرور، الشرور موجودة في البيوت، والمراكب، والطرق، وفي كل مكان.

وما زال الأنبياء، والمرسلون، والأولياء، والصالحون يبادرون إلى هذه الشعيرة العظيمة لفضلها، وبركتها، ولعلو منزلتها، ولحاجتنا إليها، ولكثرة الخطأ والزلل منا.

ولذلك ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يجب على العبد أمورًا:

* **الأول**: فِعْلَ الْمَأْمُورِ.

* **الثاني**: تَرْكَ الْمَحْظُورِ.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٤٨١٠)، ومسلم (١٢٢).

* **والثالث**: الصَّبْرَ عَلَى الْمُقْدُورِ.

* **والرابع**: الِاسْتِغْفَارِ.

من لازم هذه الأربع الأمور نال سعادة الدارين.

(فِعْلَ الْمَأْمُورِ): صلى، وصام، وحج، واعتمر، وأحسن إلى والديه، وإلى جيرانه، وإلى أرحامه، وصدق في حديثه، وأدى الأمانة.

(تَرْكَ الْمَحْظُورِ): ابتعد عن الشرك، والزنا، والخنا، والكذب، والخيانة، وغير ذلك من الشرور.

(الصَّبْرَ عَلَى الْمَقْدُورِ): ابتلاه الله عَزَّوَجَلَّ بموت قريب أو بمرض أو بفقر أو غير ذلك، وهو صابرٌ على قدر الله عَزَّوَجَلَّ لله عَزَّوَجَلَّ.

ومع ذلك يحتاج لأمر رابع لجميعها، أمر يحيط بهذه الثلاثة ألا وهو الاستغفار.

إن كان قد فرط في عدم الإتيان بالمأمور كما أوجب الله عَزَّوَجَلَّ؛ الاستغفار يمحو ذلك التفريط.

إن كان قد فرط ووقع في محظور من المحظورات التي نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنها؛ الاستغفار يقضي على ذلك التفريط.

إن كان قد وقع منه التسخط، والتذمر، وعدم الرضى بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ؛ الاستغفار يقضي على هذا الأمر.

إذا نحن بحاجة إلى أن نتقمص بهذا القميص العظيم.

انظر إلى سورة هود من أولها إلى آخرها حين يذكر الله عَزَّوَجَلَّ حال الأنبياء يذكر دعوتهم إلى الاستغفار، قَالَ تَعَالَى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} [هود:٣]، هذا قول نبينا ﷺ.

ثم قول هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [هود:٥٢].

وذكر الله عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} [نوح:١١-١٢].

وهكذا يذكر عن صالح، وشعيب، وكل نبي يأمر قومه بالاستغفار، والتوبة إلى الملك الغفَّار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

* فوالله يا إخوة نحتاج إلى هذا الأمر لاسيما ونحن في خاتمت هذه العبادة لعل الله أن يتجاوز عنا الزلل في هذا الشهر الكريم، ولعل الله عَزَّوَجَلَّ أن يتجاوز عن ضعفنا، وتقصيرنا في عدم الإتيان بالصيام كما شرع وأمر، وإنما بقدر المستطاع، ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ القبول.

وكم نتذمر من قلة ذات اليد، أو المصائب التي تصيب الإنسان فنستغفر الله عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(١).

فالله عَزَّوَجَلَّ غفور رحيم أسمه الغفور، والغفار، والغافر، ثلاثة أسماء دالة

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

على صفة واحدة، فالغفَّار: دال على المبالغة في مغفرة الذنوب، وستر العيوب، فعلى الإنسان أن يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ من أي ذنب وفي كل حين، وإذا أحس العبد في نفسه أنه لا يحتاج إلى توبة فهذا ذنب في حد ذاته، يحتاج أن يتوب منه، وكون الإنسان يؤخر التوبة هذا ذنب يحتاج إلى توبة.

وذكر ابن القيم، وابن تيمية رَحِمَهُمَاٱللَّهُ: أن كثيرًا من الناس قد تقع منهم التوبة من الذنوب وتبقى عليهم معرة الذنب؛ لأنه لم يتب من تسويف التوبة، ولهذا قال يحتاج إلى توبة عامة تقضي على جميع الذنوب، والسيئات، والزلات.

فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يتوب علينا، وعلى جميع المسلمين، ونسأله تعالى أن يعيننا على الرجوع إليه، فوالله إنَّ في الرجوع إليه خير عظيم، قَالَ تَعَالَى: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الذاريات:٥٠]، كل شيء تفر منه إلى غيره إلا الله فإن الفرار منه إليه؛ لأنك إذا فررت إلى غيره هلكت، وإذا أردت النجاة اهرب إليه وأتِه فهو سبحانه يقبل، «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»(١)، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكريم المنان، الرحيم، الرحمن.

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ**

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

لَكَ»، قَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى: لَا أَدْرِي أَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ: «اعْمَلْ مَا شِئْتَ»(١).

وليس معنى ذلك أن الإنسان يتلاعب بالتوبة، لا، هذا العبد الذي ذُكِرَ عبدٌ رجاعٌ توابٌ، ربما غلبته نفسه، وهواه، والشيطان ثم أتى بالتوبة بشروطها وأركانها فيتوب الله عَزَّوَجَلَّ عليه، ثم يعاود الذنب فيتوب الله عَزَّوَجَلَّ عليه.

وقد ذكر أهل العلم في معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا} [التوبة:٨]: أن الإنسان لا يعود إلى الذنب، وهذا قد يتعذر.

لكن التوبة النصوحة هي المستوفاه، لشروطها، وأركانها:

* **الأول: الإخلاص لله** عَزَّوَجَلَّ؛ لأن التوبة عبادة ولا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ من العبادات إلا ما كان خالصًا لوجه.

* **الثاني: أن تكون في زمن تقبل فيه التوبة**، وهي منقسمة إلى قسمين:

١- زمن خاص.

٢- زمن عام.

أما الخاص: فهي توبة العبد ما لم يغرغر، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»(٢).

وأما العام: فهو طلوع الشمس من مغربها، من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه.

* **الثالث: الإقلاع عن الذنب**، فلا يصلح أن يقول الإنسان: أنا تائب وهو ملازم للذنب ومعاقر له؛ بل يقلع عنه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨)، واللفظ له.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧).

* **الرابع: الندم على فعل الذنب**، فلا توبة مع الفرح بالذنب الذي عصى الله عَزَّوَجَلَّ به.

* **الخامس: العزم على عدم العودة إلى الذنب.**

* **بقي التوبة في حقوق العباد، وشرطها سادس إضافة إلى ما تقدم**، وهو رد الحقوق إلى أصحابها، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ**»(١).

وإن كان الرجل مبتدعًا وجب عليه إضافة إلى الخمسة الشروط، ما في قوله تعالى {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا} [البقرة:١٦٠]، الإصلاح من البدعة التي هو عليها، والبيان أنه كان على ضلال.

وإن كان الذنب نفاقًا فشروطه مع ما تقدم، ما قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ} [النساء:١٤٦].

وإن كانت التوبة من الكفر، فقد قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال:٣٨].

والصحيح من أقوال أهل العلم أن التوبة تصح من الزنديق، والمنافق، والساحر، وغير ذلك خلافًا لما ذكره بعض أهل العلم من عدم صحتها منهم، ومن أتى بها على أوجهها، وشروطها فهي صحيحة مقبولة.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.